

نحو استراتيجية قومية  
للبحث التربوي في الوطن العربي \*

أ.د. فؤاد أبو حطب

أستاذ علم النفس التربوي

كلية التربية - جامعة عين شمس

البحث التربوي في الوطن العربي ، عبارة تتألف من حدين أحدهما البحث التربوي، وثانيهما الوطن العربي ، وكلاهما يحتاج إلي تحليل في ضوء المشهد الأكبر الذي ينتسب إليه، فالوطن العربي المعاصر جزء من مشهد عالمي نشهد تغيراته وتقلباته وتحولاته ، والبحث التربوي هو كذلك جزء من منظومتين أكبر هما التربية من ناحية ، والبحث العلمي من ناحية أخرى ، وكلاهما يتعامل مع المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الشاملة للمشهد العربي . وهذا كله لا بد من وضعه في الاعتبار عند التخطيط لاستراتيجية قومية للبحث التربوي في الوطن العربي .

المشهد العالمي :

نحن نعيش اليوم في عالم لم تتشكل معالمه الأساسية بعد ، صحيح أن ثورة التكنولوجيا أدت الي ظاهرة العولمة ، وأن انتهاء الحرب الباردة أدت الي ما يسمي النظام العالمي الجديد ، وأن التغير في الوزن النسبي لعناصر الانتاج أدت الي مفهوم مجتمع المعلومات ، وأن انهيار الاشتراكية واقتصاد القطاع العام أدت الي الاعتقاد في انتصار الرأسمالية ، واقتصاد السوق ، ومع ذلك فإن ما يحدث هو ارهاصات الانتقال أو التحول من عصر في حياة الانسانية إلي عصر آخر .

والعصر الذي يوشك أن ينقضي هو الذي عاشت فيه الانسانية حوالي ثلاثة قرون ، من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين ، وأطلق عليه تسميات مختلفة أشهرها عصر الصناعة أو الموجة الثانية أو الحدائة ، والذي صنع لنفسه وينفسه

(\*) ورقة قدمت إلى مؤتمر ( البحث التربوي في الوطن العربي : إلى أين ) ، كلية العلوم التربوية ، الجامعة الأردنية - عمان ( ٢ - ٥ نوفمبر ١٩٩٨ ) .

مجموعة القواعد والمبادئ التي حددت خصائصه التي امتدت الي مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والمعرفية والتي يلخصها توفلر (Toffler) في كتابه الشهير (الموجه الثالثة) .

إلا أن هذا العصر يوشك أن ينقضي ويطلق عدد من المفكرين المعاصرين علي العصر الذي يوشك أن يولد ، بعد فترة حمل إمتدت طوال النصف الثاني من القرن العشرين ، تسميات مختلفة لعل أهمها : عصر ما بعد الصناعة ، عصر المعلومات ، الموجه الثالثة ، عصر ما بعد الحداثة ، وتتفق هذه الاتجاهات جميعا علي أن هذا العصر الجديد سوف يشهد تغيرا في طبيعة المعرفة ، وفي نمط الانتاج والاستهلاك ، وفي أدوار الأفراد والمؤسسات ، وفي أنماط الحياة اليومية للناس علي النحو الذي فصله نبيل علي (١٩٩٤) ٠٠

ولعل المعلوماتية هي أهم سمات العصر الجديد ، والتي أدت إلي إعادة ترتيب الأولويات الحاكمة للعالم وهي الثروة والقوة والمعرفة ، وجعلت للمعرفة موقع الصدارة باعتبارها الأداة الحاسمة لإحداث كل من الثروة والقوة ( عبد الله عبد الدايم ، ١٩٩٥) ٠

### المشهد العربي :

انعكست بالطبع التحولات الكبرى التي تغير وجه العالم الذي نعيش فيه علي الوطن العربي ، إلا أنه وقف ، ولا يزال يقف وهو علي مشارف القرن الحادي والعشرين - إزاءها مستقبلا مستسلما علي النحو الذي حدث له عندما واجه العصر الصناعي في أوائل القرن التاسع عشر ، ويمكن أن نرسم الاستجابة للتحولات الراهنة في صورة لا تختلف في قليل أو كثير عن تلك التي صدرت من قبل ؛ أقرب إلي السلوك الاستجابي Reactive منها إلي السلوك الإيجابي Proactive ، وهو سلوك يتسم بالسلبية التي هي نتاج تراث أنتجته عصور التخلف ، ويشمل التواكل والاستسلام وضعف إرادة التغيير ، وكأنما كان للهزيمة أمام تكنولوجيا الغرب في أوائل القرن التاسع عشر أن تمتد إلي قرنين من الزمان هما ثلثا عصر الصناعة أو الحداثة أو الموجه الثانية من حضارة الانسان ٠

صحيح أن هناك استثناءات لذلك تظهر خاصة في المواقف الحاسمة لعل أهمها

حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، إلا أن الإيجابية والفعالية والنشاط والمبادرة والابداع كانت دائما في مواقف بذاتها وليس في جميع الأحوال أو معظمها ، كما يجب أن تكون .

وهذا الوضع إن كان من الممكن التسامح معه أو التهاون فيه في العصر الصناعي ، ربما لأسباب قد يرجع أهمها إلي أن العالم العربي قضى أكثر من قرن من القرنين الماضيين في صراع مع الاستعمار الأوروبي ، فإن العصر الجديد أشد خطراً وفتكا للأمم الضعيفة ، فالعصر الجديد لن يتحكم في ملايين البشر بالمال والاقتصاد ومصادر التكنولوجيا فحسب ، وإنما بالقيم والفلسفات والأفكار من خلال الثورة العاتية للاتصالات والمعلومات . وهذا الشق الثاني من المسألة ( المتصل بالجانب الأيديولوجي ) هو ما عجز عن تحقيقه الاستعمار القديم ( وقد تكون الهند والجزائر أكثر الأمثلة وضوحاً علي ذلك ) . وتنبهنا إلي هذا الخطر الدراسة الهامة التي قامت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مراجعتها لاستراتيجية تطوير العربية فنقول ( عبد الله عبد الدايم ، ١٩٩٥ ) :

إن الوطن العربي مدعو أمام هذا الواقع ذي البأس الشديد أن يحدد موقفه بحيث يملك زمام الانفتاح علي العالم وفقا لمصالحه ومنطلقاته الثقافية وحاجاته الانسانية الحقيقية بحيث يدرك حدود هذا الانفتاح ومعاييره متمسكا بذاته وهويته واستقلال ذاته .

وهذه هي مهمة الجميع ، وتأتي التربية علي رأسها ، ثم يأتي البحث التربوي علي رأس الجميع .

### دور البحث التربوي في تجديد التربية و إصلاح التعليم :

يتصور البعض أن التجديد التربوي هو عملية منظمة تكتشف فيها مبادئ التعلم في المعمل مثلا ثم تؤخذ خطوة خطوة إلي الفصل . وعلي الرغم من ان بحوث التعلم تقع بالفعل في متصل من الارتباط المتزايد مع المشكلات التربوية إلا أن عملية التجديد الفعلية لا تتبع في كثير من الحالات خطوات يمكن التنبؤ بها . ومع ذلك فإن القفز من البحوث الأساسية إلي الميدان العملي غير مأمون العواقب بل قد يكون أقرب إلي الانتحار العلمي . وبالمثل فإن التجديد التربوي المباشر دون معاونة البحوث

الأساسية قد يكون من نوع المغامرات غير الرشيدة .

وحسبنا ان نذكر بعض الأمثلة من تاريخ المعرفة التربوية ، فبالنسبة للاتجاه الأول نذكر ما أكدته البحوث العملية الأساسية من أن تعلم قوائم الكلمات الشائعة يكون أسهل من تعلم قوائم الكلمات غير الشائعة . وقد استند ثورنديك الي هذا المبدأ في اقتراح أن الكلمات التي تستخدم في كتب القراءة بالمدرسة الابتدائية ( وهي من مستوى بحوث الفنون العملية ) يجب أن تكون من بين تلك التي يشيع تكرارها في المطبوع من الوسائط مثل صحف الأطفال وقصصهم . وكان هذا انتقالا مفاجئا من المعمل الي الميدان دون القيام بالخطوات الوسيطة والبحاث التطبيقية للتحقق بالفعل من أن المبدأ المعلمي الذي تحقق بالنسبة للقوائم البسيطة يصدق علي الكتب المدرسية . وتقبل الممارسون التربويون توصية ثورنديك دون تحفظ . الا أنه سرعان ما تبين في اطار بحوث علم النفس اللغوي الحديث أن الأطفال يمكنهم تعلم الكلمات غير الشائعة إذا وردت في سياق فقرات ذات معني ، وظهرت ثورة ضد القيود التي تفرض علي اختيار الكلمات وخاصة ما يتصل بالشيوع أو الألفة أو غير ذلك .

إلا أن القفز غير المبرر من البحوث الأساسية إلي الميدان ليس هو الطريق الوحيد الذي يتصور به البعض عملية التجديد أو التحديث التربوي باعتبارها عملية غير منتظمة انتظاما صارما ، وإنما قد نجد بعض المبتكرين التربويين في الاتجاه العكسي أي يسعون إلي تحديث الموقف التربوي دون الاستعانة بالبحوث الأساسية أو التطبيقية ، ولعل أشهر الأمثلة علي ذلك ما حدث في بداية القرن الحالي حينما بذلت المربية الإيطالية ماريا منتسوري جهودا في اعداد المواد التعليمية الملائمة لأطفال ما قبل المدرسة - والتي لاتزال تستخدم حتي اليوم في معظم أقطار العالم - وذلك من ملاحظة الأطفال بطريقة غير رسمية دون اللجوء الي التجارب الدقيقة والملاحظات المنظمة . وكثير مما أطلق عليه حركات الاصلاح التعليمي ، سواء في عالمنا العربي أو غيره ، ظهر بطريقة مشابهة .

وعلي أية حال فإنه في نظام معقد مثل النظام التعليمي أو المدرسي تكون الحاجة ماسة إلي استراتيجية خاصة في البحث يمكن أن نسميها استراتيجية التجديد innovation ، فأفضل الوسائل والأدوات قد يظل معطلا ، وأخصب المصادر قد

يظل غير مستخدم ، وأفضل الأساليب يظل معوقا ما لم تبذل العناية الكافية بتقديم الطرق والمفاهيم والمواد الجديدة إلي المهتمين جميعا . فليس معني أن تدعم المبادئ بالبحوث الأساسية أو التطبيقية وأن تصدق التكنولوجيات العملية اثناء الممارسة التربوية أن تنتشر هذه المستحدثات بالضرورة أوتوماتيكيا وتشبع .

وتأتي أهمية هذه المسألة للمعلم خاصة ، لأنه أحد الأطراف الهامة في عملية الإصلاح التربوي ، فهو يتعرض لتقارير البحوث التي تجري ولجوانب الاصلاح والتجديد المقترحة ، كما قد يطالب دوريا بالتدريب اثناء الخدمة ليألف الجديد في الميدان ، ومع ذلك لا يشعر بجدوي ذلك كله طالما أنه لم يكن جزءاً من منظومة التجديد، أو الإصلاح .

والواقع ان العلاقة بين البحث التربوي ، و التجديد التربوي ، علاقة وظيفية . وعادة ما يبدأ البحث ، بالاهتمام بالمسائل الأساسية لتحديد العلاقة العامة بين المتغيرات التي تولف النظرية التربوية ، وعادة ما تتطلب هذه المرحلة الارتباط بشكل مباشر بالاتجاهات الأساسية في البحث التربوي ( الفلسفة ، الاقتصاد ، علم الاجتماع ، علم النفس .. الخ) . ويتوقف هذا علي فهم الباحث للعلاقة بين هذه المجالات المختلفة وموضوع التجديد التربوي (الأهداف - المنهج - التدريس ، التقويم ، الخ) .

ويتبع هذا مهمة التطوير ، والتي يمكن أن تنقسم إلي مهمتين فرعيتين : إحداهما تسمي التصميم ، وتتطلب توافر فريق من المتخصصين في البحث التربوي لاعداد ما يسمي العبوة التربوية ، Educational Package . وهذه العبوة ، قد تكون فلسفة متطورة ، أو منهجا جديدا، أو طريقة مستحدثة في التدريس ، أو تنظيما جديدا للمدرسة .

أما المهمة التطويرية الثانية فتسمي الاختبار ، وفيها تتم محاولة تجريب العبوة ( المنهج الجديد مثلا ) علي عينة من الأصل الاحصائي، المستهدف Targer Population ، وهنا يتعرض البرنامج الجديد للتقويم الشامل ، ويتطلب هذا توافر مقاييس جيدة لتحديد الي اي مدي تتفق النواتج التي يحدثها البرنامج مع الأهداف المعدة له . وبالطبع قد توجد في العبوة ، الجديدة بعض النقائص ، وفي

هذه الحالة لا بد أن تعاد الي مرحلة التصميم ، لمزيد من التحكم في الجودة .

وهذه هي المهمة الأساسية للبحوث التربوية سواء في الجامعات أو غيرها من مراكز البحث التربوي ، إلا أن هذه البحوث - حتي ولو أنشئت لها مراكز متخصصة تقوم بها - لا تؤدي بذاتها إلي التجديد ، التربوي ، أو الإصلاح ، التعليمي . وإنما يحتاج الأمر إلي تدريب مستمر للمعلمين أثناء الخدمة ، وتدريب الطلاب في كليات التربية ومعاهد اعداد المعلمين للتغلب علي مقاومة المعلم للطرق والمواد الجديدة ، وللحصول علي تقبله وحماسه ، للابتكار التربوي ، بشرط إلا يؤدي هذا إلي مجرد الحماس ، للجدة ، في ذاتها . ويجب أن ننبه هنا إلي مشكلة محيرة في التحديث ، التربوي بصفة عامة والذي عادة ما يختنق بين نوعين من التطرف : مقاومة المعلم والإدارة التعليمية والتلميذ لكل ما هو جديد من ناحية ، والحماس الزائد ، للجديد ، في ذاته ، وفي جميع الأحوال يجب اتخاذ الحيطة والحذر لتجنب الوقوع في أي من المزلقين .

كما أن إحداث ، التغيير التربوي ، يتطلب أيضا الحصول علي دعم للبرنامج من قطاعات الإنتاج والخدمات في المجتمع والسلطة السياسية والتربوية ورجال الفكر والثقافة وغيرهم من المهتمين بالتربية .

والأمر علي أي حال يحتاج إلي مشروعات بحوث تربوية واسعة النطاق ، ولا يقتصر الأمر علي مشروعات البحوث الصغيرة الوفيرة . وتجربة الدول المتقدمة تؤكد أن النوع الأخير من المشروعات لا يؤدي إلي نتائج ملائمة ، ومن ذلك أن آلاف البحوث الصغيرة التي أجريت علي تدريس القراءة لم تؤد إلا إلي نتائج محدودة النطاق ضيقة الأثر ، بينما خبرة علماء النفس بالبحوث الواسعة النطاق التي أجريت في القوات المسلحة في البلدان المتقدمة تؤكد جدوي النتائج التي توصلوا إليها وفعاليتها . وهذا درس ثمين يجب أن تستوعبه الدول النامية . ومنها الدول العربية جيدا : إن نتائج البحوث التي قد تؤدي إلي التغيير الاجتماعي ومنه التحديث والتجديد التربوي لا تأتي بسرعة ولا بأرخص الأثمان .

## واقع البحث العلمي في الوطن العربي :

لعل من أهم الدراسات التي تناولت واقع العلم في الوطن العربي دراستان ، قام بأولاهما أنطوان زحلان (١٩٧٩) ، وبالأخري المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (١٩٨٩) عند وضع استراتيجيات لتطوير العلوم والتكنولوجيا في الوطن العربي . ولعل من أهم النتائج التي توصل إليها أنطوان زحلان من استقصائه لحالة العلم في عدد كبير من الأقطار العربية، مايلي :

.. رغم ان حجم القوي البشرية العلمية العربية يقارب مثيلاتها في الدول الكبيرة خلال الحرب العالمية الثانية ، فان مجموع إنتاجيتها من حيث الناتج العلمي منخفض ، ولا يضاهي - سواء من حيث النوع أو الكمية - مجموع إنتاجية المجتمعات العلمية الأوروبية أو الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية أو قبلها ، (ص ٢٤٠).

وقد أرجع الباحث ذلك الي قصور الموارد للباحثين سواء كانوا في الجامعات أو مراكز البحوث ، مما أدي إلي الاعتماد علي الشركات الأجنبية والتمويل الأجنبي في تصور وتخطيط وتصميم المشاريع والتعاقد علي تنفيذها ، وكذلك تشغيلها وإدارتها ، ( ص ٢٤١).

وقد وصف تقرير المنظمة العربية والثقافة والعلوم (١٩٨٩) حالة العلم والبحث العلمي والتكنولوجيا في الوطن العربي بتفصيل أكثر نوجزه فيما يلي :

- (١) عدم وجود سياسات علمية وتكنولوجية واضحة .
- (٢) ضعف الموارد المخصصة لأنشطة العلم والتكنولوجيا سواء من حيث الكم (الانفاق) ، أو الكيف ( مستويات تأهيل وإعداد الباحثين ) .
- (٣) المحاكاة المباشرة لأنشطة العلم والتكنولوجيا في البلدان المتقدمة تحت تأثير الطلب الاجتماعي .
- (٤) ضعف الارتباط بين أنشطة العلم والتكنولوجيا بالحاجات الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية للمجتمع ، وخاصة حاجات الصناعة .
- (٥) انخفاض مستوي البيئة المحيطة بالعلم من الوجهتين الاقتصادية

- والاجتماعية مما أدى إلي ضعف التفاعل بينها وبين العلم والتكنولوجيا .
- (٦) استيراد العلم والتكنولوجيا أو نقلهما علي نحو مباشر مما أدى إلي عدم إحراز تقدم ملحوظ في تطويرهما وتنميتها .
- (٧) عدم تحقيق العلم والتكنولوجيا للنتائج المرجوة منهما ، وعجزها عن تقديم الحلول لعدد كبير من المشكلات المطروحة علي الساحة العربية .
- (٨) عدم دمج منظومة العلم والتكنولوجيا في المنظومات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للمجتمع في إطار سياسات التنمية .
- (٩) إهمال العلوم الاجتماعية عند رسم السياسة العلمية والتكنولوجية مما أدى إلي العجز عن توظيف التنمية العلمية والتكنولوجية في خدمة أهداف المجتمع وغاياته .
- (١٠) عدم إحداث تغييرات هامة في العلاقات الاجتماعية الداخلية ، والعلاقات الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية الخارجية علي نحو يؤدي الي تنمية علمية وتكنولوجية حقيقية .
- (١١) وجود ، حلقة فاسدة ، تشد الخناق علي منظومة العلم والتكنولوجيا وتعوق انطلاق طاقات الإبداع لدي العلماء والباحثين العرب .
- (١٢) نقص المعلومات المتبادلة عن العلم والتكنولوجيا داخل الوطن العربي .
- وهكذا يتبين أن حالة العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي لا تسر أهدأ ، وأنهما في حاجة إلي تنمية اجتماعية واقتصادية حقيقية توفر لهما الموارد المالية ، كما أنهما في حاجة إلي تطوير حقيقي في منظومة التعليم بحيث توفر لهما الطاقات البشرية المبدعة ، بالإضافة إلي تغيير الاتجاهات نحو البحث العلمي التي تأخذها بخفة أو إهمال ، وكذلك بناء وتطوير مؤسسات للبحث العلمي علي درجة عالية من الكفاءة والفعالية .



## واقع البحث التربوي في الوطن العربي :

البحث التربوي جزء من منظومة البحث العلمي في الوطن العربي ، وبالتالي فإنه في حالة لا تختلف عن حال المنظومة الأكبر ، إن لم يكن أكثر سوءاً ، ومن الطريف أن يكون هذا هو حالنا بينما زاد عدد الجامعات في الوطن العربي ، كما ورد في تقرير اليونسكو ، من ١٠ جامعات عام ١٩٥٠ الي ١٣٢ جامعة عام ١٩٩٣ ( ومن المتوقع أن يصل عددها الي ١٥٠ جامعة عام ٢٠٠٠ ) . فإذا أضفنا إلي ذلك أن عدد الكليات والمعاهد التي تتبع وزارات التعليم العالي وتستقل بنشاطها عن الجامعات يبلغ حوالي ١٣٦ كلية ومعهداً ، فإن عدد المؤسسات التي يمكن لها العمل في مجال البحث العلمي من حقل التعليم الجامعي والعالي أكثر من ٢٥٠ مؤسسة .

فإذا تأملنا حجم الانفاق علي البحث العلمي في الجامعات بمقارنته بالتدريس نجده في عام ١٩٩٢ لا يمثل - حسب تقرير لليونسكو- إلا ٤ ٪ . بينما يلتهم التدريس ٩٠ ٪ من ميزانية الجامعات العربية (Qasem, 1995 a) . وحسب إحصاءات عام ١٩٩٣ يبلغ عدد الكليات التي تنتسب الي الجامعات والتي تعد بيئة للبحث العلمي ٤٨ كلية في العلوم الطبيعية والتكنولوجيا ( الهندسة ، العلوم ، الطب ، الزراعة ، الصيدلة ، التمريض ، طب الاسنان ، الطب البيطري ، الحاسبات والمعلومات ) ، ويكاد يساويها عدد كليات العلوم الانسانية والاجتماعية ( ٤٧٧ كلية ) منها ٩٦ كلية للتربية وهي المؤهلة بالطبع للبحث التربوي .

أما عن مراكز البحوث التربوية خارج الجامعات في عام ١٩٩٢ فقد بلغ عددها ٧ مراكز ، يضاف إليها وحدات أكثر تخصصاً في المناهج أو تكنولوجيا التعليم تتبع وزارات التربية والتعليم ، ويبلغ عدد العاملين المتفرغين فيها ١٥٥ من الحاصلين علي درجتي الماجستير والدكتوراه ( احصاءات عام ١٩٩٢ ) ، وهو عدد لا يمثل إلا ١,٢ ٪ من مجموع العاملين في جميع مراكز البحوث في مختلف التخصصات ويبلغ عددهم ١٤٤٨٨ باحثاً (Qasem,1995 b) .

وبالنسبة لتمويل البحث التربوي فإنه في حالة لا تقل سوءاً عن حالة البحث العلمي بصفة عامة . فالتمويل حكومي في جوهره ولا يمثل إلا نسبة ضئيلة من الانتاج المحلي الكلي (GDP) فأعلاها ٠,٣٤ ٪ ، بل أن هناك في كثير من الأحيان

فجوة بين المبالغ المخصصة نظريا في الموازنة وحجم الانفاق الفعلي علي البحث العلمي ، ويرجع ذلك في جوهره إما الي خفض في الموازنة أو الي بطء الإجراءات ، ويؤثر ذلك بالطبع في جميع مكونات البحث العلمي : المعامل ، والعاملين ، والبنية الأساسية ، بحيث يؤدي إلي عدم القدرة علي القيام ببحث علمي له معني . (Qasem, 1995b) .

وقد سعت بعض الدول العربية إلي توفير موارد مالية للبحث العلمي الي جانب الطرق التقليدية والمباشرة . فقد لجأت بعض الدول الي نظام المسابقات أو من خلال الأولويات التي تحددها مؤسسات وطنية قوية مسؤولة عن سياسات البحث العلمي والتكنولوجيا ، ومن أمثلة ذلك أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا في مصر ، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، ومدينة الملك عبد العزيز للعلم والتكنولوجيا في المملكة العربية السعودية ، والمجلس الأعلى للعلم والتكنولوجيا في الأردن ، والمجلس الوطني للبحث العلمي في لبنان ، وتتفاوت نسب التمويل الكلي الذي تقدمه هذه المؤسسات للبحث العلمي من عام لآخر ، ولو أنه يتراوح بين ٢٪ ، ٥٪ سنويا من حجم تمويل البحث العلمي .

ومع ذلك يظل العبء الأكبر في تمويل البحث العلمي في الوطن العربي مسئولية الحكومات ، حيث يمثل هذا التمويل ما بين ٩٠٪ ، ١٠٠٪ من حجم الانفاق عليه في معظم الدول العربية وقد بدأت في بعض الدول مبادرات محدودة من القطاع الخاص ورجال الأعمال لدعم مجالات معينة من البحث العلمي الذي تقوم به المؤسسات الوطنية ، إلا أن هذا المصدر لا يزال ضعيفا ولا يمثل إلا نسبة لاتزيد عن ٢٪ من حجم تمويل البحث العلمي في الوطن العربي .

وهكذا يمكننا القول أن البحث العلمي بصفة عامة والبحث التربوي بصفة خاصة في الوطن العربي في حالة أزمة حقيقية .

## نحو استراتيجية لمستقبل البحث التربوي في الوطن العربي :

للتغلب علي المشكلات التي يواجهها البحث التربوي في العالم العربي لابد من وضع استراتيجية لمستقبل هذا الميدان تعتمد علي الدعائم الآتية :

### (١) تحرير مفهوم التنمية :

الشرط الأول لتطوير البحث التربوي في وطننا العربي ( باعتباره جزءا من العالم النامي ، هو تحرير مفهوم التنمية من نماذج ، التحديث ، التي تتطلب عمليات ، التغريب ، . وهذا التحرير ليس هدفا في ذاته وإنما هو في قلب السؤال الجوهرى : ماهي التنمية ؟

قد يفيدنا ونحن نتحدث في سياق البحث التربوي أن نسترشد بمبادئ تنمية الفرد ، لوجود قدر كبير من التشابه بينها وبين تنمية الجماعات والمجتمعات ، والتي تتلخص في ثلاثة جوانب :

(أ) مقابلة الحاجات الأساسية لدي الفرد ( أو الجماعة أو المجتمع ) مع التحول الي الاعتماد علي الذات مستفيدا من خبرات الآخرين لاشباع هذه الحاجات . .

(ب) تيسير وتعميق عمليات المواءمة والعلاقات مع الآخرين علي أساس التفاعل المتبادل .

(ج) البحث عن وسائل للتعبير عن الذات تعين علي تحديد شخصية واضحة ، وعلي تحمل المسؤولية ، وعلي تنمية الامكانيات الذاتية ، وعلي الوصول الي الاستقلال (Schwendler, 1984) .

وقد تنبتهت منظمة اليونسكو منذ عام ١٩٧٧ إلي هذه الجوانب الرئيسية للتنمية وصاغت برنامجها الشهير حول تبادل المعلومات لتحقيق التنمية المعتمدة علي الذات Endogenous Development . وتقوم هذه الفكرة الأساسية علي افتراض إنه إذا كانت التنمية تسعى إلي إطلاق طاقات الابداع في كل مجال وفي كل أمة من الأمم فإن ذلك يتنافي مع القولية والتعليب . ومعني ذلك أن لكل ثقافة الحق في أن تحافظ علي شخصيتها المستقلة وأن تستثمر طاقاتها وإمكاناتها الذاتية ، وأن توظف

كل ما هو متاح لها لتحقيق أهدافها القومية ومنه المعلومات التي يتم تبادلها مع الثقافات الأخرى . وبذلك يمكن للتنمية أن تحقق طموحات وتوقعات وآمال شعوب العالم النامي ( ومنها الوطن العربي ) . وبذلك أيضا سقطت نهائيا فكرة التنميط علي نسق نموذج خارجي ( الغرب بالنسبة للدول النامية ) ، وحلت محلها فكرة النموذج الخاص الذي تحدده الثقافة في ضوء أهدافها ووسائلها التي تختارها بحرية . وفي هذا السياق يصبح تبادل المعرفة بين الثقافات أحد مصادر قوة شعوب الدول النامية . وهنا تلعب العلوم الاجتماعية والانسانية ( ومنها التربية ) دورها البارز في تحقيق هذا النمط من التنمية المعتمد علي الذات ، بشرط أن تتوافر فيها هي هذه الخاصية ، ويكون المبدأ السائد في علاقة البحث التربوي في الوطن العربي بنظيره في الغرب علاقة تبادل Exchange وتحويل Transformation وليس علاقة نقل Transfer علي النحو السائد في علاقة الاستيراد - التصدير التي ناقشناها آنفا .

ولعل هذا المفهوم للتنمية ، ودور التبادل أو التفاعل المشترك فيه لا يقتصر بآثاره الايجابية علي دول العالم العربي فقط ، بل إن أثره لا بد أن يصيب أيضا الغرب المتقدم . فالغرب الذي لعب طوال الحقبة الماضية دور المصدر فقط قد يتحول الي البحث عن التكامل في البحث والنشر وتبادل الخبراء ، وربما الأكثر أهمية في الوصول الي مبادئ ونظريات وأخلاقيات إنسانية عامة .

## (٢) التفاعل بين التراث القومي والحاجات المعاصرة :

يثير مفهوم التنمية المعتمدة علي الذات ، مسألة التراث علي نحو مباشر ، وهي المسألة التي انقسمت إزاءها مواقف معظم مثقفي الوطن العربي إلي موقفين متضادين : رفض التراث لعدم موافقته مع حاجات العصر ، أو قبول التراث دون تمييز ، ففيه كل الإجابات علي تساؤلات العصر . وقد ظهر هذان الاتجاهان في البحث التربوي كما ظهر في غيره من العلوم الانسانية والاجتماعية .

وتعود أصول الاتجاه الأول إلي الظروف غير الملائمة التي تمت فيها زراعة وتقديم العلوم الاجتماعية والانسانية عامة والبحث التربوي خاصة إلي الدول النامية ومنها الدول العربية . ولقد حدث ذلك في فترة مبكرة حين كانت أقطار هذا العالم تحت الحكم الاستعماري . ولهذا تجاهل التقديم المبكر لهذه المعارف كثيرا من الحقائق

الثقافية ، لعل أهمها أن هذه الأمم لها تاريخ طويل في الحضارة الانسانية والفكر الانساني ومنه المفاهيم السيكلوجية والتربوية .

ولنتأمل حالة الوطن العربي . أنه من المهين حقاً لأي متخصص في علم النفس والتربية في الوطن العربي أن يقرأ في المؤلفات المتخصصة في تاريخ العلم أن البداية دائماً مع مفكري الإغريق . وبذلك يتم إهمال الاسهامات العظمي التي قدمتها جميع الحضارات السابقة علي الإغريق في مجالات الطب والفلسفة والآدب والتي تضمنت بذور الفكر السيكلوجي والتربوي ، ومن هذه الحضارات ما ينتمي بأصوله إلي الأرض التي يعيش عليها العرب .

وهناك مصدر آخر للإهانة أشد خطراً وأعظم أثراً يشعر به العربي المتخصص في العلوم النفسية والتربوية وهو تجاهل المؤرخين لإسهام الحضارة الاسلامية . بل استخدم بعض مؤرخي الغرب في تأريخهم للعلم أطراً نظرية متوهمة يسعون بها إلي عبور الهوة بين العصر الذهبي ، للعلم عن اليونان ، وعصره الذهبي ، الجديد في عصر النهضة ليتجاوزوا بها العصر الذهبي ، التي تعرفه حضارتنا العربية والاسلامية للعلم خلال الفترة بين القرنين الثاني والتاسع الهجريين ( أي الثامن والخامس عشر الميلاديين ) .

وقد انتقد هذا الوضع أحد مؤرخي العلم العرب المعاصرين ( رشدي راشد ، ١٩٨٥ ) في سياق العلوم الطبيعية والرياضيات . فقد اكتشف أن التجاهل المقصود والمنظم للتفكير العلمي عند المسلمين أدبي إلي صور متعددة من تشويه تاريخ العلم ذاته . فتجاهل دور علم الجبر عند العرب مثلاً أدبي بمؤرخي الرياضيات في الغرب إلي قراءة أبلونيوس ( وقد كتب في الهندسة ) قراءة جبرية لربط أفكار ديكارت عن البناء الهندسي لجذور المعادلات الجبرية بالتراث اليوناني القديم ، علي الرغم من أن أبلونيوس نفسه لم يعرف بالطبع شيئاً عن الجبر . ولو أن هؤلاء المؤرخين الغربيين اعترفوا بدور العلم الذي أبدعته الحضارة العربية الاسلامية ونظروا إلي تاريخ العلم نظرة موضوعية لأدركوا أن العرب هم الذين صاغوا نظرية المعادلات الجبرية ذاتها ، ثم هم الذين حققوا تطبيق الهندسة علي الجبر ، وبدأوا الطريق الطويل لبناء جذور المعادلات الجبرية التي توصل إليها ديكارت في النصف الأول من القرن السابع

عشر، بفضل الجهود المبكرة لعمر الخيام ونصير الدين الطوسي ، وهما اللذان ترجمت أعمالهما وأعمال غيرهما من علماء العرب والمسلمين من العربية الي اللاتينية في العصور الأوروبية الوسطي ، وظلت حركة ترجمتها مستمرة حتي القرن السابع عشر . وهكذا يري رشدي راشد أن الأمر لم يكن في حاجة إلي تحديث أبلونيوس أو إعادة قراءته ولا إلي التعسف في القول بثورة معرفية في غير موضعها ، لو وضع تاريخ العلم عند العرب في السياق الطبيعي لتاريخ العلم . وبالطبع يمكن توجيه نقد مشابه إلي تاريخ علم النفس والتربية حين يتجاهل المؤرخون الغربيون لهذه العلوم إسهامات مفكري الإسلام من أمثال الكندي والفارابي والغزالي والرازي وابن رشد وابن سينا وابن باجه وابن خلدون وغيرهم .

وهكذا كتب تاريخ العلم من وجهة نظر الغرب متحيزا ومجزؤا . ثم أشاع هذا الاتجاه مجموعة من : المسلمات ، أثرت في الفكر المعاصر تأثيرا بالغا ، وامتد هذا الأثر إلي العلماء العرب والمسلمين المعاصرين أنفسهم ، وخلصته هذه المسلمات ، الغربية ، مايلي (رشدي راشد ، ١٩٨٥) :

- ١ - العلم مشروع غربي سواء من حيث الأصل أو التطور والنمو .
  - ٢ - أول ثورة علمية هي تلك التي حدثت في القرن السادس عشر ( عصر النهضة ) بعد فترة من عصور الظلام الوسيطة سادت العالم بعد الاستنارة التي أحدثتها الحضارة اليونانية - الرومانية .
  - ٣ - الممثلون الشرعيون لهذه الثورة العلمية هم جميعا من الغرب .
  - ٤ - لم يظهر المنهج التجريبي لأول مرة إلا في هذه الفترة .
  - ٥ - الفضل الوحيد للعلماء العرب والمسلمين في تاريخ العلم أنهم حافظوا علي التراث اليوناني ، فمهمتهم وقيمتهم أنهم كانوا حفظة المتحف اليوناني القديم .
  - ٦ - معظم التراث العلمي للعرب والمسلمين لم يلعب إلا دورا ضئيلا في التيار الرئيسي لتاريخ العلم .
- وعلي الرغم من أن هذه ، المسلمات ، جميعا يمكن دحضها وإثبات خطأها

ويطلانها من خلال قراءة فاحصة متأنية لتراث العرب العلمي ، إلا أنها رسخت بفعل التكرار والاستمرار إلي حد اقتناع جمهوره العلماء العرب والمسلمين أنفسهم بها ، فنقلوها أوتوماتيكيا ضمن ما ينقلون عن الغرب . اصف إلي ذلك ما لوحظ من أن تاريخ العلوم عند العرب لم يكن أبدا ضمن مشروع التاريخ الحضاري للعلم كما يقدمه الغرب ، وإنما أصبح ضمن مجال الدراسات الاستشراقية وفي حدود الأدوار التي قام بها المستشرقون في تاريخ العرب الحديث .

ومع وضع جميع الحقائق السابقة في الاعتبار تم تقديم البحث التريوي والنفسي الحديث إلي العالم العربي ، وبهذا تدعم الاتجاه الأول الذي يرفض التراث القومي لعدم ملاءمته من وجهه نظرهم لحاجات العصر .

أما أصحاب الاتجاه الثاني الذين يميلون الي ، تقديس ، تراث العلماء العرب والمسلمين فإن خطرهم ليس أقل من أصحاب الاتجاه الأول . انهم يعتبرون ان كل ما صدر من تراث العلماء السابقين في حضارتنا أفضل وأسبق من أي انجاز سيكولوجي أو تريوي حديث . فابن الجوزي مثلا - في كتابة الأذكياء - أفضل وأسبق - عند أصحاب هذا الاتجاه - من جميع علماء النفس المعاصرين الذين اهتموا بقياس الذكاء والقدرات العقلية . وهذه المبالغة في تقدير كل ما صدر عن تراث العلماء المسلمين ، لو أدركها أصحاب هذا التراث العظيم أنفسهم لانكروها . لقد كان رواد المنهج العقلي منهم علي علم بحدود استدلال العقل ، كما كان أصحاب المنهج التجريبي منهم أيضا أعلم بحدود الملاحظة والتجربة . ولهذا ما كان لأحد منهم أن يدعي - كما زعم من جاء بعدهم من شراحهم - أنه جمع علم الأولين والآخرين .

وهذا القول يجب ألا يفهم علي غير وجهه . فهو لا يقلل ابدا من شأن عبقرية العلماء والمفكرين الذين نشأوا في رحاب الحضارة الإسلامية العربية . فالعلم الحديث يدين لهم ، كما يدين لغيرهم من مفكري الإنسانية بالفضل العظيم . ومهمتنا كمربين عرب أن نعيد كتابة ، تاريخ علم النفس والتربية ، ، كما نعيد كتابة تاريخ العلم بعامة ، لنضع إسهامات علمائنا ومفكرينا في سياقها التاريخي الصحيح .

إلا أن أهم مايفيدنا لوضع استراتيجية تنمية للبحث التريوي في الوطن العربي أن نعتمد علي ما نسميه التفاعل الإبداعي بين تراثنا القومي والحاجات المعاصرة .

وقد تفيدنا حينئذ التجربة التاريخية للعلم العربي في أزهى عصوره ، وهي الفترة التي تمتد بين القرنين الثاني والتاسع الهجريين ( أي الثامن والخامس عشر الميلاديين ) ، وهي الفترة التي يصفها رشدي راشد ( ١٩٨٥ ) بأنها فترة «العلم العربي» حيث كانت المراكز العلمية الأساسية في الحضارة الإسلامية تتكلم العربية ، والتي يحدد سماتها كما يلي ( رشدي راشد ، ١٩٨٥ ) .

( أ ) كان علم العرب علي اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، وعلم المسلمين علي اختلاف شعوبهم وأجناسهم الذين كتبوا باللغة العربية . فهو علم لم يعرف شعبية أو طائفية أو تمييزاً .

( ب ) كان جزءاً من الممارسة الاجتماعية اليومية ، فلم يقتصر علي بلاط الحكام ، ولم ينحصر في الدور الرسمية للعلم ( بيوت الحكمة ، المدارس ، المستشفيات ، المراصد ، الخ ) ، وإنما أمتد إلي مختلف مستويات الحياة إستجابة لحاجات العصر في ذلك الوقت ، فظهر العلم العربي مثلاً في الديوان حساباً وجبراً ، وفي المسجد فلماً وتوقيتاً وعلماً للفرائض . ويصدق ذلك علي الطب والكيمياء وفروع الرياضيات الأخرى . وهذه السمة بالذات كانت مصدر خصوبة للعلم العربي وسبباً لنموه وتطوره .

( ج ) كان شاملاً للجوانب الأساسية والتطبيقية جميعاً ، ومن الأخطاء الشائعة عن العلم العربي أنه اقتصر علي الإجابة علي الأسئلة العملية فقط . والواقع أن جزءاً كبيراً من نشاط علماء العرب والمسلمين انصب علي تناول المسائل النظرية مع البحث عن تطبيق عملي . وهذه إحدى سمات العلم في كل العصور ، ومنه العلم الغربي الحديث ، كما كان سمة العلم اليوناني القديم .

( د ) كان إبداعياً علي نحو ميزه عن علوم الحضارات القديمة ( ومنها العلم اليوناني ) وجعله مقدمة لظهور العلم الغربي الحديث مع بداية عصر النهضة الأوروبية . وتمثلت سمته الإبداعية في تطبيق مبادئ علم علي علم آخر علي نحو يؤدي الي توليد علوم جديدة من ناحية وتنمية العلوم القديمة من ناحية أخرى . وهذه الخاصية الجديدة للعلم والتي تشبع الآن فيما يسمى العلوم البيئية Interdisciplinary لم تظهر قبل الحضارة



الإسلامية العربية . ومن أمثلة ذلك تطبيق الهندسة علي الجبر ( مما أدى إلي ظهور البناء الهندسي لجذور المعادلات الجبرية ) . وتطبيق الجبر علي الهندسة ( مما أدى إلي تطوير نظرية الاعداد ) . وتطبيق الهندسة علي الفيزياء في مجال البصريات ( مما أدى إلي ظهور علم المناظر ) ، وتطبيق الرياضيات في البحوث اللغوية ( مما أدى الي ظهور علم المعاجم ) ، ناهيك عن ظهور المنهج التجريبي سبيلا للبرهان من خلال جمع البيانات الواقعية .

(هـ) كان إنسانيا ، وقد ظهر ذلك فيما بذله العرب القدامي من جهد بالغ في ترجمة أمهات الكتب التي ورثوها عن المراكز العلمية الرئيسية أو التي ذهبوا للحصول عليها داخل ما تبقي من الإمبراطوريات المنهارة . وهكذا لم يعتبر العرب والمسلمون ، علم ، الحضارات الأخرى من الأمور الدخيلة التي يجب نبذها ، أو يسيروا إلي ، فكر ، الآخرين علي أنه غزو ، بل نظروا إلي هذا الجهد الانساني بالتقدير والإعجاب ، إلا أن ذلك لم يوقعهم في أسر التبعية ، بل تعاملوا معه من موقف الندية ، فنقدوه وأبدعوا وأضافوا إلي تراث الإنسانية . لقد نقد ابن الهيثم بطليموس ، ونقد الرازي جالينوس ، ونقد الخيام إقليدس ، بل كان ينقد علماء العرب بعضهم بعضا وكان النقد في جميع الأحوال يحكمه الاحترام المتبادل ( مثال : نقد كمال الدين الفارسي لنظرية أستاذه الحسن بن الهيثم في قوس قزح ) ، وحين أبدعوا أصبح تراثهم ملكا للإنسانية أيضا حين ترجمت أمهات كتبهم بدورها إلي اللاتينية في العصور الأوروبية الوسطي ، وأثرت بدورها في ظهور العلم الحديث في أوروبا في عصر النهضة ( مثال : كبلر ، صاحب الثورة العلمية الحقيقية في علم الفلك وليس كوبرنيكس ، قرأ - ومن بعده ديكارت - ترجمة مناظر ابن الهيثم إلي اللاتينية ) .

### (٣) الحث علي تنمية الفكر الابداعي في التربية :

هذه هي سمات العلم العربي كما ظهر ومورس خلال فترة الازدهار للحضارة العربية والإسلامية ، وظلت كذلك حتي تدهورت حين أصبح النشاط العلمي يحتل

مكانا هامشيا وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهي السمات التي افتقدناها مع دخول العلم الأوروبي في كثير من البلدان العربية منذ نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . فقد اتسم منذ ذلك الحين بخصائص التبعية التي تنازلناها بالتفصيل في هذا البحث .

كيف الخروج من التبعية إلى الإبتكارية ومن التقليد إلى التجديد ومن الإلتباع الي الإبداع ؟ هناك سبل عديدة نلخصها فيما يلي :

( أ ) الاستفادة من دروس التاريخ ( درس الحضارة العربية الاسلامية من ناحية ، ودرس الحضارة الأوروبية من ناحية أخرى ) في التبادل المعرفي القائم علي احترام الآخر وتقدير الذات . واعتبار تراث الحضارات كلها تراثا للإنسانية .

( ب ) البحث عن حلول علمية جديدة للمشكلات التي تثيرها الممارسة الاجتماعية في الثقافة العربية المعاصرة ابجوانبها المادية وغير المادية .

( جـ ) توفير الوسائل لصناعة الباحث العلمي العربي المبدع وذلك من خلال تهيئة تربية عربية للمواطن العربي تؤدي به الي أن يتحول من الجمود الي المرونة ، ومن التجانس الي التنوع ، ومن ثقافة الحد الأدنى الي ثقافة الاتقان والجودة ، ومن ثقافة الاجترار الي ثقافة الابتكار ، ومن ثقافة التسليم الي ثقافة التقويم ، ومن القفز الي النواتج الي معاناة العمليات ، ومن الاعتماد علي الآخر الي الاعتماد علي الذات ، ومن التعليم محدود الأمد الي التعليم مدي الحياة ، ومن ثقافة القهر الي ثقافة المشاركة ، وهي التحولات العشرة التي نري أنها المباديء التي يجب ان تحكم التربية في العالم العربي في القرن الحادي والعشرين ( فؤاد أبو حطب ، ١٩٩٨ ) .

( د ) إعادة النظر في نشاط الترجمة في الوطن العربي ، ومرة أخرى يفيدنا تاريخ العلم العربي . لقد ارتبطت حركة الترجمة في تاريخ العلم العربي بالبحث العلمي الإبداعي ذاته . وفي ذلك يقول رشدي راشد ( ١٩٨٥ ) إن الهدف من الترجمة في عصر الازدهار الحضاري العربي لم يكن إنشاء

مكتبة عربية ، أو إثراء خزائن الخلفاء والأمراء بالكتب ، وإنما لتلبية حاجات البحث العلمي نفسه . فقادته الترجمة في ذلك العصر كانوا هم قادة الحركة العلمية . واختيار الكتب التي ترجمت ، وتوقيت هذا الاختيار كان يعتمد في معظم الحالات علي حاجة البحث ذاته . ( مثال : لم يترجم أبلونيوس إلا عند حاجة ثابت بن قرة إلي أبحاثه في دراساته للرياضيات ) . ومعني ذلك أن الترجمة في ظروفنا الراهنة يجب أن ترتبط بحاجاتنا البحثية التي يجب أن تتحدد بوضوح . وتزداد أهمية هذه الاستراتيجيات في الربط بين الترجمة والبحث في الظروف المعاصرة التي تتسم بانفجار معرفي تولده حضارة حية نشطة تجعل ملاحقة الجديد في العلم من الأمور التي تقترب من المستحيل .

(هـ) نمو الابداع في البحث التربوي لا يعزل عن نمو الابداع في المجالات الأخرى وبخاصة في العلوم اللغوية . ويتطلب ذلك خلق اللغة العلمية وتطويرها . ومرة أخرى تقدم لنا شواهد التاريخ أدلة علي ذلك . فمع بداية الترجمة عن اليونانية في القرن الثالث الهجري خلق العرب لغة علمية أصيلة ، سواء من حيث المفردات باستخدام طرق التعريب والتوليد والنحت ، أو إبداع التراكيب والتعابير الجديدة التي لم تعرفها العربية من قبل وهذه الثروة يجب أن تستثمر في بناء اللغة العلمية المعاصرة ، وفي توحيد المصطلحات بين البلاد العربية ، ناهيك عن الاستفادة من التجربة ذاتها في التعامل مع المصطلحات المستحدثة . ولعلنا بذلك نتجاوز الفصام اللغوي في استخدام المصطلحات العلمية الذي يعيشه العالم العربي اليوم .

(و) تنمية اتجاه نقدي لتراث البحث التربوي الغربي من ناحية ، ولما تم إنتاجه من بحث تربوي في الوطن العربي طوال الحقبة الماضية من ناحية أخرى ، سعياً للإصلاح النظري والإصلاح المنهجي للبحوث التربوية التي تجريها العلماء العرب في الوقت الحاضر .

(ز) تنمية استراتيجيات بحث جديدة للثقافة العربية تشمل الافتراضات والنماذج والنظريات ومناهج البحث وأدواته لا تستند في جوهرها الي

الفلسفة الوضعية كما أفرزها الغرب. ولعلنا ندرك أن هذا كله يتعرض الآن لتحولات جذرية في الفكر العلمي في الغرب ذاته، وقد أشرنا إلى التحولات في فلسفة العلم عامة من الوضعية وعصر الحداثة إلى عصر ما بعد الوضعية وما بعد الحداثة. وقد كان لذلك انعكاسه في فلسفة البحث التربوي ذاته. وتتزايد الكتابات في الوقت الحاضر للدعوة إلى التحليل الكيفي، والأسلوب السردى Narrative وغيرها من مفاهيم ما بعد الوضعية وما بعد الحداثة، والتي يمكن توظيفها بكفاءة في إطار ثقافتنا العربية والإسلامية. ويمكن مراجعة التراث المعاصر المتزايد حول الموضوع في بعض المصادر التي تناولته (فؤاد أبو حطب، ١٩٩٨، 1994، Kvale) التي تناولته (Constas, 1998).

#### (٤) خلق الوسط العلمي وتطوير بيئة البحث :

من أهم إنجازات العلم العربي في عصور ازدهاره أنه وفر الوسائل لخلق الوسط العلمي، الصحي والصحيح في الوطن العربي من خلال مؤسسات حقيقية لعل أهمها نمط بيوت الحكمة في بغداد والقاهرة، والتي انتقلت فكرتها إلى ما سمي الأكاديميات العالمية في أوروبا، والتي هيأت بيئة للبحث Research Environment علي درجة عالية من الكفاءة والفعالية.

ولعل أهم معوقات تنمية العلم في عالمنا العربي المعاصر ما يشوب الوسط العلمي وبيئة البحث من مشكلات تقيد حركة العلماء. وقد حظي موضوع بيئة البحث، باهتمام الباحثين في السنوات الأخيرة، وقد تكون أهم هذه الدراسات تلك التي قام بها بلاند وروفين (Bland & Ruffin, 1992) وتوصلا فيها إلى إثنتي عشرة خاصية لبيئة البحث الملائمة، يمكن إعادة تصنيعها إلى الفئات الآتية: الموارد المادية والبشرية، والتفاعل المهني والتواصل بين الباحثين، وجدوي البحث وقيمه من المنظور الاجتماعي، والقيادة العلمية للمشروعات البحثية.

(أ) الموارد المادية : والتي تمثل الهم الأكبر الذي يورق المشتغلين بالبحث العلمي في جميع المجالات، في الدول النامية والمتقدمة علي حد سواء. ولكي ينجح البحث العلمي في أي مجتمع ويحقق أهدافه لابد من توافر الحد الأدنى علي الأقل من

التمويل والبنية الأساسية . وقد أشرنا إلي تدني التمويل المخصص للبحث العلمي عامة، والبحث التربوي خاصة في الوطن العربي . وقد أدى هذا النقص الخطير في الموارد المادية إلي آثار بالغة الأهمية في طبيعة البحوث وتوجهاتها والأدوات المستخدمة في جمع المعلومات . فالملاحظ مثلاً أن معظم البحوث التربوية في معظم الدول النامية تستخدم اختبارات واستبيانات الورقة والقلم ، وغيرها من الطرق ، الرخيصة ، لجمع المعلومات ( Shaeffer & Nkinyangi, 1983 ) . كما ان الباحثين في هذه الاقطار يركزون علي المجالات البحثية التي لا تصلح معها إلا هذه الطرق والأدوات . ولعل هذا ما حدا مثلاً بعالم النفس الهندي سنها ( Sinha ) ( 1986 ) إلي أن يطلق علي علم النفس في بلده بأنه « علم نفس الإستبيانات » ، *Psychology Questionnaire* . بل حتي بحوث علم النفس الحيواني لم تجر علي حيوانات في العالم النامي ، إلي حد أن أحد علماء النفس الزوج المعاصرين ( Guthrie, 1976 ) أطلق عبارته الشهيرة « حتي الفأر كان أبيض » ، علي الرغم من كثرة الفئران وغيرها من القوارض في بلادنا . وهذه الأوصاف تطبق ربما بنصها - علي عالمنا العربي . وهكذا يشكل ويحدد نقص الموارد المادية مايقوم الباحثون بإجرائه من بحوث .

إلا أن تأثير نقص الموارد المادية بأعتبارها من مكونات بيئة البحث علي الروح المعنوية للباحثين قد يكون أخطر . والأخطر منه إدراك الباحثين بقصور هذه الموارد الذي قد يفوق النقص الحقيقي لها ، وقد يعوق ذلك بيئة البحث حتي ولو حدث بعض التطوير الفعلي فيها .

(ب) الموارد البشرية : المشهد العلمي بالنسبة للموارد البشرية في العالم العربي متنوع، ففي بعض الدول العربية توجد وفرة في هذه الموارد ، وفي البعض الآخر يوجد نقص كبير فيها إلي الحد الذي لا يوفر الكتلة الحرجة التي تحدث التأثير الفعال في بيئة البحث ، أضف إلي ذلك مشكلة هجرة العقول من العالم العربي (والدول النامية عامة ) إلي الدول المتقدمة ، بالإضافة إلي هجرة العقول داخل الوطن العربي ، ولو أنها أقل ضرراً أو لعبت دوراً في إحداث التنمية العلمية العربية المشتركة . وقد كشفت دراسة ( Bland & Ruffin, 1992 ) المشار إليها أن

الرضا عن الموارد البشرية في بيئة البحث ( ويشمل ذلك الزملاء والمساعدين والفنيين والإداريين وطلاب البحث ) يفسر أكبر مقدار من التباين في إنتاجية مؤسسات البحث العلمي، حيث يوفر وجودهم لزملائهم التفاعل المشترك والاستثارة المتبادلة والخبرة المتاحة . وبالطبع فإن الأهم من كم الموارد البشرية في مجال البحث العلمي نوعيتها ومستواها . وقد تأكد أن الباحث يكون أكثر إنتاجية حين يعمل مع زملاء منتجين ، ويتطلب ذلك بالضرورة استقطاب الموهوبين وتعريضهم لبرامج تدريبية علي البحث العلمي رفيعة المستوى ، مع توفير الحوافز الملائمة لهم التي تدفعهم لتكريس جهودهم للعلم دون الانشغال بالبحث عن مغان أخرى للمكانة الاجتماعية أو للمستوى الاقتصادي . مع تنوع مصادر هذه الموارد البشرية من مختلف الجامعات ، والتخلص تدريجيا من ظاهرة « التوليد الذاتي، Inbreeding (حين تعين الجامعات خريجها فقط دون سواهم كمعيدين مثلا) .

(ج) التفاعل المهني والتواصل الاجتماعي : فكرة البحث في بيئة ملائمة أشبه بالجنين في بيئة رحم صحية ، وبالتالي فهي تتأثر بالاستثارة والدعم والمشورة والخبرة التي تقدم من الآخرين . ولهذا الابد لبيئة البحث أن تتيح للباحثين مناخا اجتماعيا متعاطفا ومشجعا ومدعما ، وظروفا مثيرة عقليا ومعرفيا ، وشبكة معلوماتية للتواصل والاتصال ، ويتطلب ذلك مايلي :

(١) زيادة عدد الدوريات العلمية مع الاهتمام برفع مستواها العلمي من خلال تطوير نظام تحكيم البحوث ودخولها في حلبة السباق العالمي للنشر .

(٢) بناء شبكة مهنية فعالة للبحث التربوي من خلال جمعيات ومؤسسات علمية توفر للباحثين اللقاء المباشر من خلال مؤتمرات علمية علي مختلف المستويات الوطنية والقومية والعالمية .

(٣) بناء قاعدة بيانات للبحث التربوي في الوطن العربي تتيح للباحث التعرف علي رصيد المعرفة لزملائه في الميدان تجنباً لتكرار البحوث واستثماراً للجهود السابقة .

(٤) تطوير لغة الكتابة العلمية والاهتمام الخاص باستخدام اللغة العربية في

التدريس والبحث ، وتنمية مصطلحاتها العلمية ، مع انفتاح علي الثقافة العالمية والتفاعل معها من خلال نظام الملخصات Abstracts العلمية للبحوث العربية ببعض اللغات الأوروبية واسعة الانتشار .

(٥) تنمية روح النقد العلمي ، مع الاهتمام بنشر هذا النقد علي نطاق الجماعة العلمية المتخصصة ، وتجاوز حدود ما نسميه النقد العلمي ، غير المنشور ، الذي لا يتجاوز حدود مناقشة الرسائل العلمية ، أو تقارير تحكيم البحوث المقدمة للنشر ، أو فحص الانتاج العلمي للمتقدمين للترقية في الوظائف الجامعية أو البحثية المختلفة .

(٦) وضع معايير قومية لتحكيم الأعمال العلمية وتبادل الرأي في الاجتماعات المهنية وتحرير المجالات العلمية . فالطابع الغالب هو سيطرة المشاعر الشخصية ، وسهولة التعرف علي الباحث - حتي ولو نزع اسمه من علي غلاف البحث - وخاصة حين يكون عدد الباحثين في موضوع معين محدوداً . وقد يصل الأمر الي ما يسميه (Chiappe & Myers, 1983) معيار المساومة Compromise Norm حين يكون اتخاذ موقف نقدي من مسودة بحث زميل أمراً صعباً . أضف إلي ذلك أن المؤلف قد يجد عادة ناشراً بديلاً حين يرفض بحثه .

( د ) الاتجاهات نحو البحث العلمي : لعل أهم مشكلة يعاني منها البحث

التربوي في الدول النامية ، ومنها الدول العربية ، ضعف الارتباط بالثقافة الوطنية والقومية ، كما بينا ، ومن هنا عجز عن تقديم حلول للمشكلات الناجمة عن التغيير الاجتماعي السريع ، أضف إلي ذلك إلي سوء المطابقة ، بين العلم ، المستورد ، إن صح التعبير ، والسياق الثقافي . علي نحو يبعد البحث عن المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحاسمة ، وينتج توجهات بحثية تطبيقية لا تتوافق مع المشكلات النوعية الخاصة .

فإذا علمنا أن المجتمع العربي نفسه الذي يمر بمتغيرات اجتماعية واقتصادية انما يعد في ذاته وبذاته معملاً كبيراً للعلوم الاجتماعية والإنسانية جميعاً بطريقة تسمح باكتشاف الأنماط المستقرة أو المتغيرة من السلوك الفردي والاجتماعي ، أو بناء أنساق

نظرية جديدة ، وقد يؤدي ذلك إلي الإسهام في تقدم المعرفة علي المستوي الإنساني العام ، ويتطلب ذلك توفير ودعم الإجراءات التي تؤكد اندماج الباحثين التربويين في بحوث سليمة نظريا ومرتبطة ثقافيا واجتماعيا مما يؤدي الي تغيير النظرة إلي البحث العلمي التربوي .

ويرتبط بذلك مسألة تدفق معلومات البحث التربوي . لقد اشرنا الي ضرورة التخلص من علاقة الطرف الواحد ، وأن يكون هذا التدفق في اتجاهين بين المجتمعات النامية والمتقدمة . وقد يؤدي ذلك إلي فائدة الطرفين ، وإلي تقدم المعرفة علي نحو قد يتجاوز الوضع الراهن أحادي الاتجاه . بل إننا في حاجة إلي تدفق للمعلومات متعددة الاتجاهات ، ويشمل ذلك ما بين الدول النامية وما بين الدول العربية ، مع تطوير ما نسميه إستراتيجية التحويل للمعلومات Transformatin وليس مجرد النقل أو الانتقال (Abou- Hatab, 1994) .

والبحث التربوي التطبيقي المرتبط اجتماعياً والذي يعتمد علي تصورات نظرية ذاتية المنشأ endogenous له أهمية في العالم العربي . فقد يؤدي إلي زيادة الاعتراف بقيمة البحث التربوي من ناحية ، كما يؤدي الي التنمية المجتمعية من ناحية أخرى . إلا أن ذلك لا يعني الدعوة الي عدم الاهتمام بالبحوث الأساسية في مجال التربية . وحبذا لو دعمت هذه البحوث بحيث تصل بنا الي نماذج نظرية حساسة ثقافيا لسياقات غير غربية . وبهذا نتجاوز الوضع الراهن ، والذي ينظر فيه الغرب إلي العالم النامي ، ومنه العالم العربي ، علي أنه مصدر للحصول علي المعلومات ، بينما الأفكار والنظريات هو الغرب نفسه (Kagitcibasi, 1992) . ومن هنا شاع التعبير الشهير الغرب وماسواه، The West and The Rest .

وهذه الإجراءات لو أحسن اتخاذها قد تؤدي إلي تغيير وتعديل النظرة إلي البحث العلمي، وإلا سيظل الاتجاه السلبي العام نحوه واتهامه بالسطحية أو عدم الارتباط .

(هـ) القيادة العلمية : تحتل القيادة مكان الصدارة بالنسبة للمتغيرات

التنظيمية في بيئة البحث ، فهي التي تؤثر في الإنتاجية العلمية للمؤسسة من خلال تنشيط وتحفيز الخصائص التنظيمية الأخرى ، ولعل أهم جوانب القيادة العلمية الفعالية



- (١) السلطة من خلال المشاركة وذلك بتهيئة الفرصة لجميع الموارد البشرية في المؤسسة بالشعور بالحرية مع قدر كاف من التحكم في بيئة البحث . والابداع القيادي هنا يتمثل في التوازن الذهبي بين الحرية والضبط .
- (٢) التفاعل الايجابي مع القوي الاجتماعية والثقافية المؤثرة في بيئة البحث وخاصة ظروف التنمية في المجتمع ، ونظامه السياسي ، وطبيعة البيروقراطية ، وحالة التعليم الجامعي والعالي ، واتجاهات الرأي العام ، وسياسات الحكومة . ويفيد ذلك كله في تحقيق الحاجات البحثية Research Needs وأولويات البحوث.
- (٣) دعم ثقافة المؤسسة البحثية ومقاومة عوامل التدخل من خارجها ، وإلا تؤدي - وخاصة عوامل التدخل السياسي من الحكومة والاحزاب السياسية - الي تشويه بيئة البحث وفقدان الثقة فيما تنتجه المؤسسة العلمية من بحوث . بل إن هذا التدخل قد يؤدي إلي التخلي عن دراسة موضوعات معينة لحساسيتها الاجتماعية (التربية الجنسية مثلا) أو إلي عدم نشر البحوث إذا تعارضت نتائجها مع بعض السياسات أو الأيديولوجيات .
- (٤) توفير نماذج للدور الانتاجي الايجابي في البحث التربوي من خلال مثال أو أمثلة حقيقية حية ، مع توفير جو الثقة والتعاون وبين المستويات المختلفة للباحثين سواء أكانوا من المبتدئين أو من المخضرمين .

## خلاصة وخاتمة :

لقد حاولنا أن نعرض في هذه الدراسة مشكلات البحث التربوي في الوطن العربي ، ثم حاولنا أن نجيب علي السؤال الرئيسي حول مستقبل هذا البحث في ظل هذه الظروف والمشكلات .

وخلاصة ذلك أن إجابتنا تعتمد علي الجهد المنظم والمقصود لرعاة النظر في مفهوم تنمية العالم العربي لتصبح أكثر اعتماداً علي الذات . فالاعتماد والتبعية في العلم لها آثارها المدمرة شأنها في ذلك شأن إعتمادية الأفراد أو المجتمعات . إلا أن ذلك لا يعني تعزيز عنصرية جديدة ضد الغرب . لقد ركزنا طوال هذا البحث علي أهمية إدراك أن المنظور الغربي للبحث التربوي والتفسي لا يمكن استبعاده من أي جهد جاد لبناء توجهات جديدة في الوطن العربي . إلا إن ما نحن في حاجة إليه أكثر من غيره هو التحليل الثقافي الأصيل والتركيب الإبداعي الحكيم . وعلينا دائماً أن نحذر ونعي خطراً آخر متوقفاً هو الاندماج الانفعالي والوجداني في الثقافة الوطنية إلي حد أن تصبح هذه الثقافة هي منظارنا الوحيد لادراك قضايا الحاضر والمستقبل .

## المراجع

- ١ - انطون زحلان : العلم والسياسة العلمية في الوطن العربي ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٩ .
- ٢ - رشدي راشد : تاريخ العلم والعطاء العلمي في الوطن العربي . (في) : مركز دراسات الوحدة العربية : تهيئة الانسان العربي للعطاء العلمي . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥ .
- ٣ - سعد الدين ابراهيم وآخرون : علم الاجتماع وقضايا الانسان العربي ( ندوة ) : (في) : مركز دراسات الوحدة العربية : نحو علم اجتماع عربي . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٦ .
- ٤ - عبد الله عبد الدايم : مراجعة استراتيجية تطوير التربية العربية ، تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٩٥ .
- ٥ - علي الدين هلال : التحولات العالمية المعاصرة وأثرها علي مستقبل التعليم في

- الوطن العربي . أعمال الندوة التربوية حول ( استراتيجيات التعليم  
بالوطن العربي في ضوء تحديات القرن الحادي والعشرين ) ، القاهرة ،  
جامعة الدول العربية ، ديسمبر ١٩٩٤ .
- ٦ - فؤاد أبو حطب : مسيرة البحث في علم النفس في العالم العربي وأفاق تطويره ،  
ورقة قدمت الي مؤتمر ( دور كليات التربية في تطوير التربية من أجل  
التنمية في الوطن العربي ) ، جامعة دمشق ، ابريل ١٩٩٧ .
- ٧ - \_\_\_\_\_ ، فلسفة العلم في عصر مابعد الوضعية ومابعد الحدائثة .  
ورقة قدمت الي المؤتمر الثاني للجمعية المصرية للتربية العلمية .  
الاسماعيلية (ابوسلطان) يوليو ١٩٩٨ .
- ٨ - فؤاد ابو حطب : التعليم المصري في القرن الحادي والعشرين ، المجلة المصرية  
للدراسات النفسية ، المجلد ٨ ، العدد ١٩ ، مايو ١٩٩٨ ، ٢٢ - ٨ .
- ٩ - \_\_\_\_\_ : علم النفس في العالم العربي : دراسة حالة من الدول  
النامية . ورقة قدمت الي الندوة الدولية لعلم النفس ، جامعة محمد  
الخامس ، الرباط ، ١٩٩١ .
- ١٠ - \_\_\_\_\_ : علم النفس في مصر والعالم العربي : دراسة في  
العلم والمجتمع ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ( تحت الطبع ) .
- ١١ - فؤاد ابو حطب ، أمال صادق : علم النفس التربوي . القاهرة : مكتبة الأنجلو  
المصرية ، ط ٢٥ ، ١٩٩٦ .
- ١٢ - محمد عزت حجازي : الأزمنة الراهنة لعلم الاجتماع في الوطن العربي .  
(في) : مركز دراسات الوحدة العربية : نحو علم اجتماع عربي .  
بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦ .
- ١٣ - محمود الذواوي : التخلف الثقافي النفسي كمفهوم بحث في مجتمعات الوطن  
العربي . (في) : مركز دراسات الوحدة العربية : نحو علم اجتماع  
عربي . بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٦ .

- ١٤ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : استراتيجية تطوير العلوم والتقانة في الوطن العربي - بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩ .
- ١٥ - هشام غصيب : نحن والفكر المستورد . ( في ) : مركز دراسات الوحدة العربية : الفلسفة العربية المعاصرة - بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٨ .
- ١٦ - نبيل علي : العرب وعصر المعلومات . الكويت . عالم المعرفة ، ١٩٩٤ .
- 17- Abou-Hatab, F. Psychology in Egypt: A Case Study From the Third World. Paper presented to 24th International Congress of Psychology. Sydney, Australia, 1988.
- 18- Abou-Hatab, F. Egypt. (In): .S. Sexton & J.D. Hogan (Eds.): International Psychology: Views from Around the World. University of Nebraska Press, 1992.
- 19- Abou-Hatab, F. Psychology From Egyptian, Arab and Islamic Perspectives. Unfulfilled Hopes and Hopeful fulfillment: European Psychologist. 1997, 2, 356-365.
- 20- Adair, H. Research Environment. International Journal of Psychology. 1995, 30, 643-662..
- 21- Azouma, H. Psychology in Non-Western Country. International Journal of Psychology. 1984, 19, 45-56.
- 22- Bland, C.J. & Ruffin, M.T. Characteristics of a Productive Research Environment: Literature Review. Academic Medicine, 1992, 57, 385-391.
- 23- Constat, M.A. The Changing Nature of Educational Research and Critique of Postmodernism. Educational Researcher. 1998, 27, 26-33.
- 24- Guthrie, R.V. Even the Rat was White. New York: Harper & Row, 1976.

- 25- Kagitcibasi, C. Linking the Indigenous and Universalist Orientations. In S. Iwawaki, Y. Kashima, & K. Leung (Eds.) Innovations in Cross-Cultural Psychology. Amsterdam: Swets & Zeitlinger, 1992.
- 26- Kvale, S. Postmodernism. In R.J. Corsini (Ed.) Encyclopedia of Psychology. New York. John Wiley, 1994.
- 27- Lerner, D. The Passing of Tradional Socity: Modernizing the Middle East. New York: Glence, 1964.
- 28- Schwendler, W. Unesco's Project on the exchange of Knowledge for Endogenous Development. Inter. J. Psychol., 19, 1984, 3-15.
- 29- Shaeffer, S. & Nkinyangi, J.A. Educational Research Environment in the Developing World. Ottawa: Inter. Develop. Research Centre, 1983.
- 30- Sinha, J.B. Towards Parternship for Relevant Research in the Third World. Inter. J. Psychol. 19, 1984, 169-177.
- 31- Sinha, D. Psychology in a Third World Country: The Indian Experience. New York SAGE.
- 32- Qasem, S. The Higher Education System in the Arab States. Cairo: UNESCO, 1995 (a).
- 33- Qasem, S. R & D. Systems of Higher Education in the Arab World. Cairo: UNESCO, 1995(b).
- 34- Vassaf, G.Y.H. Turkey. In A.R. & C.K. Giglen (Eds.): International Handbook of Psychology. New York: Greenwood, 1997.